مجلة البحوث الأكاديمية
المجلد 30، العدد 02، السنة 2026

المظاهر التعليمية الحضارية في السودان الشرقي خلال القرون 6-9 هـ / 12 – 15 م: دراسة تاريخية حضارية

محمد القدافي الناري
الأكاديمية الليبية للدراسات العليا - مصراتة، قسم التاريخ الإسلامي، ليبيا

DOI: https://doi.org/10.65540/4fqbxv46

استلمت الورقة بتاريخ 2026/06/19، وقبلت بتاريخ 2026/09/29، ونشرت بتاريخ 2026/09/29
الكلمات المفتاحية:
سودان الشرقي، المدارس، الخلاوي، الزوايا، المساجد.

Copyright © 2026 by The Libyan Academy for Postgraduate Studies This work is –Misrata, Libya. licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License, which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided the original work is properly cited.

الملخص

يتناول هذا البحث بضعا من المظاهر التعليمية الحضارية في السودان الشرقي خلال القرون (6–9هـ/12–15م)، بوصفها أحد الجوانب المهمة في تاريخ المنطقة الحضاري والإسلامي. ويهدف إلى الكشف عن دور الإسلام في تشكيل الحياة الدينية والتعليمية والاجتماعية، وبيان أثر المؤسسات التعليمية الحضارية في نشر الثقافة العربية الإسلامية وترسيخها بين المجتمعات المحلية. اعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي من خلال دراسة المصادر التاريخية وكتب الرحلات والجغرافيا، إلى جانب الاستفادة من الدراسات الحديثة ذات الصلة.

وتوصل البحث إلى أن انتشار الإسلام في السودان الشرقي أسهم في ظهور مجموعة من المؤسسات الحضارية التي كان لها دور بارز في بناء المجتمع، وفي مقدمتها المساجد والكتاتيب والخلاوي والزوايا، حيث تحولت إلى مراكز للتعليم والتوجيه الديني ونشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية. كما أبرزت الدراسة الدور الفاعل للحكام والعلماء والتجار في دعم هذه المؤسسات ورعايتها، الأمر الذي ساعد على ازدهار الحركة العلمية والثقافية في المنطقة، وأظهرت النتائج أن الموقع الجغرافي للسودان الشرقي وشرق إفريقيا على طرق التجارة الدولية أسهم في تعزيز التواصل العلمي الحضاري مع العالم الإسلامي، مما أدى إلى انتقال المعارف والأفكار والقيم الإسلامية، وأسهم في تكوين مراكز تعليمية حضارية مزدهرة كان لها أثر واضح في الحياة الفكرية والاجتماعية. وتؤكد الدراسة أن المظاهر الحضارية في المنطقة شكّلت ركيزة أساسية في ترسيخ الهوية الإسلامية، وأسهمت في تعزيز مكانة السودان الشرقي وشرق إفريقيا ضمن فضاء الحضارة الإسلامية خلال العصور الوسطى.

المقدمة

تُعدُّ المظاهر الحضارية إحدى الركائز الأساسية في دراسة تاريخ المجتمعات الإنسانية، إذ تعكس مستوى تطورها الثقافي والفكري والاجتماعي، وتُبرز طبيعة التفاعلات التي أسهمت في بناء هويتها الحضارية. ويُعد السودان الشرقي من المناطق التي شهدت خلال القرون (6–9هـ/12–15م) نشاطًا حضاريًا ملحوظًا، ارتبط بانتشار الإسلام وتنامي العلاقات التجارية مع العالم الإسلامي، مما أسهم في ظهور مؤسسات دينية وتعليمية واجتماعية كان لها دور بارز في تشكيل الحياة الثقافية والفكرية بالمنطقة.

قد أسهم الموقع الجغرافي المتميز للسودان الشرقي وشرق إفريقيا على طرق التجارة البحرية والبرية في تعزيز التواصل الحضاري بين سكان المنطقة والعالم الإسلامي، الأمر الذي انعكس على انتشار المساجد والكتاتيب والمدارس والزوايا، وظهور طبقة من العلماء والفقهاء والدعاة الذين كان لهم أثر واضح في نشر التعليم والثقافة الإسلامية. كما لعب الحكام والتجار دورًا مهمًا في دعم هذه المؤسسات ورعايتها، بما أسهم في ترسيخ مظاهر الحضارة الإسلامية وتطوره3ا في المنطقة.

أهداف البحث: يسعى البحث إلى تقديم رؤية تاريخية حضارية تسهم في إبراز مكانة السودان الشرقي في التاريخ الإسلامي، والكشف عن الدور الذي قامت به مؤسساته الدينية والتعليمية والاجتماعية في بناء الحضارة الإسلامية وترسيخها في المنطقة.

أهمية البحث: تنبع أهمية هذا البحث من اهتمامه بدراسة جانب حضاري يمثل أحد المكونات الرئيسة لتاريخ السودان الشرقي وهو جانب لم يحظَ بالقدر الكافي من الدراسة مقارنة بالجوانب السياسية والاقتصادية، رغم دوره المحوري في تشكيل البنية الثقافية والاجتماعية للمجتمعات المحلية. ومن ثم يسعى البحث إلى إبراز طبيعة هذه المظاهر الحضارية ودورها في نشر الثقافة الإسلامية وإرساء أسس الحياة العلمية والدينية خلال الفترة محل الدراسة.

إشكالية البحث: تتمثل إشكالية البحث في محاولة الكشف عن طبيعة المظاهر الحضارية التي عرفها السودان الشرقي خلال القرون (6–9هـ/12–15م)، ومدى إسهام الإسلام والمؤسسات الدينية والتعليمية في تشكيل الحياة الحضارية بالمنطقة، والدور الذي اضطلع به الحكام والعلماء والتجار في دعم هذه المظاهر وتطويرها. وينبثق عن هذه الإشكالية عدد من التساؤلات، من أبرزها: ما أهم المظاهر الحضارية التي شهدتها المنطقة خلال الفترة محل الدراسة؟ وما دور المؤسسات الدينية والتعليمية في نشر الثقافة الإسلامية؟ وكيف أسهمت القوى الاجتماعية المختلفة في دعم هذه المظاهر الحضارية واستمرارها؟

muhammadsalamh.@gmail.com

منهجية البحث: اعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي؛ من خلال جمع المادة العلمية من المصادر التاريخية الأصلية والدراسات الحديثة، ثم تحليلها ومقارنتها وربطها بالسياق التاريخي الذي نشأت فيه، بما يساعد على تفسير الظواهر الحضارية وبيان أبعادها المختلفة.
حدود البحث: أما الحدود الزمنية للبحث فتتمثل في الفترة الممتدة من بدايات القرن السادس إلى نهاية القرن التاسع الهجري / بدايات القرن الثاني عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي. وهي مرحلة شهدت اتساع النفوذ الإسلامي وازدهار النشاط الحضاري في السودان الشرقي في حين تشمل الحدود الجغرافية مناطق السودان الشرقي وشرق إفريقيا، بما تضمه من مراكز حضارية مهمة مثل بلاد البجا وسواكن والنوبة وعلوة وزيلع ومقديشو وكلوة وغيرها من المناطق التي شهدت نشاطًا حضاريًا بارزًا خلال تلك الحقبة.
وتتمثل المظاهر الحضارية في السودان الشرقي كالاتي:
أولا: المساجد والكتاتيب:

تميّزت منطقة السودان الشرقي والسودان خلال القرون من السادس إلى التاسع الهجري (الثاني عشر إلى الخامس عشر الميلادي) بحركة عمرانية وتعليمية واضحة، حيث شكّلت الكتاتيب والمساجد محورًا رئيسًا في نشر الإسلام وتثبيت حضوره في المجتمعات المحلية. هذا الوجود جاء متكئًا على دعمٍ من الحكام المحليين والتجار المسلمين الذين شكّلوا عنصرًا فاعلًا في التوسع الحضاري الإسلامي، وهو ما تؤكده الروايات الجغرافية والرحلات التاريخية.

ولقد عرف السودان المسجد باكراً وفقا لما جاء في اتفاقية العرب والنوبة في العام 30هـ-651م وكذلك اتفاقية عبد الله بن الجهم مع البجا في العام 227هـ -841م وما جاء فيهما من الإلتزام باحترام الإسلام وعدم هدم المساجد لما للإسلام من مكانة فيالسودان [1] ولم تختلف وظيفة المسجد في السودان عن غيره من بلاد المسلمين فأصبحت أماكن للصلاة والوعظ وحل المنازعات ومأوىً للغرباء ومركزاً لتعليم الدين واقامة حلقات الدروس. إذ كان التعليم في السودان في بادئه عبارة عن التعليم الديني الذي قام على أساس تعليم القرءان وحفظه استخدمت المساجد لهذا الغرض إلى جانب بعض الخلوات والتي أصبحت الوحدة التعليمية الرئيسية في السودان [2].

أما الكتاتيب فقد انتشرت في كل الأمصار العربية والإسلامية وان اختلفت المواد وطرائق تناولها. ولم تقتصر وظيفة بعض الكتاتيب على حفظ القرءان فقط بل تعدته إلى تعلم القراءة والكتابة وتعلم الاشتغال بالحرف اليدوية وتأدية بعض الأعمال المساعدة كالزراعة أو البناء أو جمع الأخشاب فكان من يتخرج منها يمتلك حرفة تعينه في حياته لكسب رزقه، وكلمة مكتب أو الكُتاب تقابل كلمة الخلوة والمسيد في السودان، والمكتب عُرف في بداية الدولة الإسلامية في السودان قبل تأسيس مملكة الفونج، فقد أورد ود ضيف الله في طبقاته أن الكتاتيب ظهرت في أماكن مختلفة في السودان منها منطقة علوة [3] وسارت على نفس النسق الذي سارت عليه في القرن الأول الهجري. ففي الكتاب يتلقى الطلاب مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرءان الكريم وبعض الفروض كالصلاة وكيفية الوضوء وطاعة الوالدين واحترام وتوقير الكبير وتعد الكتاتيب من أول الدور المتخصصة التي أنشئت في السودان لتعليم الصبية قبل معرفة الخلوة [3].

بالإضافة لما سبق تحول تعليم الصبية إلى حرفة يؤجر عليها، وان لم تكن تلك الأجور التي تدفع محددة بل كانت تترك لحالة الصبي وطاقة أهله المالية، كما أن هناك مبلغاً من المال يدفعه الصبي في المواسم والمناسبات كالأعياد، وفي بعض الأحوال كان يدفع مقدارٌ من القمح أو الذرة بدلًا عن النقود عندما يصل إلى مواضع معينة من القرءان حتى يختمه، ويكون ذلك بإقامة احتفال كبير تقدم فيه النقوط والأكسية للمعلم. وهناك مصدر آخر لتكسب المعلم ألا وهو نسخ المصاحف في أوقات فراغه وكتابة الأحجبة والرقي للمرضى[2].

وفقا لما سبق كان بكلوة كتاتيب لتعليم مبادئ القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم بالإضافة إلى المسجد، وكان التعليم فيها مختلطاً فالأولاد والبنات معاً حتى سن البلوغ، وبعد ذلك يتم حجب البنات، حيث يكن قد تلقين قدراً من التعليم يساعد من على استكمال ثقافتهن الدينية وذكر بعض المؤرخين أن أهل كلوه كانوا يحرصون على تعليم البنات، وأنه وجد بمدينتهم بعض الشيخات اللاتي يقمن بتدريس القرآن وتحفيظه للنساء في منازلهن [4].

لعل أكبر الدلائل على انتشار المساجد وأهميتها أنهم استخدموا الحجارة في بنائها ، فكانت أعمدة مسجد كلوة من الحجارة المنحوتة، وفيه قباب بنيت بطريقة هندسية دقيقة، وقد احترق هذا الجامع في عهد أبي المواهب الحسن بن سليمان المهدلي الذي كان يحكم كلوة حينما زارها ابن بطوطة سنة731هـ / 1331، ولم يبق إلا القبة المشهورة التي يصلى فيها ، ولما أراد أحد خلفائه إعادة البناء لم يستطع البناؤون أن يركبوا الأعمدة كما كانت؛ لأنها كانت من الحجارة المنحوتة فاستعاضوا عنها بأعمدة خشبية وجعلوا مؤخرة المسجد قباباً تكملة لقبة أبي المواهب الباقية [5]، وفي المدن الأخرى استخدمت الأساليب العمرانية نفسها : فمساجد ممباسا من الخشب محكمة الإتقان ، وعند كل باب من أبوابها يحفر بئر أو بئران للوضوء والسقيا [5].

أما في زنجبار فيوجد المسجد الذي يعد من أقدم مساجد مدن الساحل ، حيث بني سنة 500هـ / 1107م ، كما يتضح من النقش الذي لا يزال موجوداً في محرابه [6] وقد اندهش البرتغاليون حينما وصلوا إلى زنجبار ، وأذهلهم تقدمها العمراني، إذ كانت المنازل مشيدة بالخشب، والمسجد ودار الحاكم مبنية بالحجارة [7]، بناء على ذلك اندهش الأوربيون من التقدم الحضاري الذي وجدوه في هذه المنطقة . يقول المؤرخ والرحالة الأسباني مارمول كرفجال الذي زار إفريقيا وتجول فيها في القرن العاشر الهجري : إن العرب عمروا ذلك الساحل فإذا وجد مكان فيه نظام وشرطة فهو من عمل يدهم وفيما يخص البناءات القديمة فهي كبيرة وفخمة وتتجاوز في بعض الأماكن مآثر اليونان والرومان [8].

قد ذكر القلقشندي أن مدن شرقي أفريقية – بالحبشة – ولها الجوامع والمساجد وتقام بها الخطب والجمع والجماعات وعند أهلها محافظة على الدين إلا أنه لا تعرف عندهم مدرسة ولا خانقاه ولا رباط ولا زاوية .... وفيهم الزهاد والأبرار والفقهاء والعلماء [9].

كما يصف ابن بطوطة مدينة مقديشو ذاكرا وجود المساجد فيها فيقول" فلما كان اليوم الرابع، وهو يوم الجمعة، جاءني القاضي والطلبة وأحد وزراء الشيخ، وأتوني بكسوة. وكسوتهم فوطة خز يشدها الإنسان في وسطه عوض السراويل، فإنهم لا يعرفونها، ودراعة من المقطع المصري معلمة، وفرجية من القدسي مبطنة، وعمامة مصرية معلمة وأتوا لأصحابي بكسى تناسبهم. وأتينا الجامع فصلينا خلف المقصورة. فلما خرج الشيخ من باب المقصورة، سلمت عليه مع القاضي فرحب وتكلم بلسانهم مع القاضي، ثم قال باللسان العربي قدمت خير مقدم وشرفت بلادنا وأنستنا وخرج إلى صحن المسجد فوقف على قبر والده، وهو مدفون هنالك، فقرأ ودعا ثم جاء الأمراء والوزراء ووجوه الأجناد فسلموا. وعادتهم في السلام كعادة أهل اليمن يضع سبابته في الأرض ثم يجعلها على رأسه، ويقول: أدام الله عزك ثم خرج الشيخ من باب المسجد، فلبس نعليه، وأمر القاضي أن ينتعل، وأمرني أن أنتعل، وتوجه إلى منزله ماشيا، وهو بالقرب من المسجد، ومشى الناس كلهم حفاة ورفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون، وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب" [5].

من جانب أخر أشار الإدريسي إلى أن بلاد الزيلع كانت "عامرة بالمساجد والأسواق " [10]، هذا الوصف يظهر بأن النشاط التجاري الذي كان يربط زيلع باليمن والهند والجزيرة العربية لم يكن نشاطًا اقتصاديًا فقط، بل حمل معه عناصر من الثقافة الإسلامية تمثلت في بناء المساجد، وهو ما يعززه ما ورد في رحلة ابن بطوطة حين وصف سلطان زيلع بأنه "يجلّ العلماء ويجري عليهم الأرزاق"[5]، هذا التكريم للعلماء من قبل السلطة

السياسية المحلية يؤكد التوجه نحو تأسيس بيئة تعليمية دينية كانت المساجد والكتاتيب جزءًا أساسيًا منها، لا سيما وأن هذه المؤسسات كانت مسؤولة عن حفظ القرآن وتلقينه، وهو ما جعلها في مقدمة المشروعات الدينية في المدن الإسلامية الناشئة.

يعلق رونالد على ذلك بقوله إن "التوسع التجاري اليمني في القرن السابع الهجري كان مترافقًا مع بعثات علمية دينية، تمثلت في إرسال فقهاء ومعلمين إلى المدن الساحلية في القرن الإفريقي، حيث بُنيت المساجد بجوار الأسواق".[11] هذا يعزز الربط بين النشاط التجاري والدعوة الإسلامية، فالتجار المسلمين لم يكونوا مجرد وسطاء للسلع، بل حملةً للقيم والثقافة الإسلامية، وكانوا في بعض الأحيان يمولون بأنفسهم إنشاء الكتاتيب والمساجد لتيسير الاندماج الثقافي والديني.

أما في السودان الأوسط، وتحديدًا في مملكة علوة، فقد أشار ابن سعيد المغربي إلى أن بعض ملوك هذه المملكة "أسلموا وأقاموا شعائر الإسلام"، وبدأوا في "بناء المساجد وإرسال أولادهم لحفظ القرآن"[12]، هذه الرواية التي توثق تحولًا دينيًا لدى الطبقة الحاكمة، تتلاقى مع ما ذكره القلقشندي عن استقبال أهل علوة للدعاة وتشييد المساجد في المناطق المفتوحة حديثًا [9]، ويُفهم من هذه الإشارات أن الحكام لم يكتفوا بإعلان الإسلام كعقيدة، بل سعوا إلى إرسائه في المجتمع من خلال مؤسسات التعليم الديني، وعلى رأسها المساجد.

جدير بالذكر هنا أن الدراسات الحديثة تُفسر هذا التحول بأنه نتيجة مباشرة لتزايد حركة القوافل التجارية القادمة من شمال السودان ومن مصر عبر النيل، حيث كانت هذه القوافل تحمل معها دعاةً ومعلّمين إلى جانب البضائع. وقد أشار المؤرخ ديفيد إدواردز إلى أن "الطرق التجارية التي مرت عبر علوة وأسهمت في تحولها الإسلامي لم تكن فقط ممرًا اقتصاديًا، بل كانت قناة لنقل المعرفة الدينية وتوطين مؤسساتها، خاصة المساجد والكتاتيب [13]. وهذا التفسير يظهر أن تحول علوة من المسيحية إلى الإسلام صاحبه إنشاء المساجد والكتاتيب كمؤسسات أساسية لنشر الإسلام وتعليم اللغة العربية في المنطقة.

يُجمع الباحثون في تاريخ الإسلام جنوب الصحراء أن ازدهار الكتاتيب في القرن التاسع الهجري قد بلغ ذروته بفضل تقاطع ثلاثة عوامل: تأييد الحكام، وتبرعات التجار، وانخراط المجتمع المحلي في هذه المؤسسات بوصفها أداة للترقي الاجتماعي والديني، حيث أن "المساجد في زيلع وشمال الصومال لم تكن أماكن عبادة فحسب، بل مراكز تعليم قرآني نشط تموّله الطبقات التجارية [14]، وبهذا يتحول المسجد من بناء ديني إلى مؤسسة اجتماعية متعددة الوظائف، تتكامل فيها العبادة مع التعليم، والدين مع المجتمع، وهو ما يُظهر صورة متكاملة للحضارة الإسلامية في الأطراف الإفريقية.

هكذا يتضح أن الكتاتيب والمساجد في السودان الشرقي والسودان لم تكن مؤسسات معزولة أو طارئة، بل كانت نتاجًا طبيعيًا لتفاعل الدين مع الاقتصاد والسياسة، وقد أسهم الحكام والتجار في دعمها لا بدافع البر فقط، بل لوعيهم بدورها في ترسيخ الإسلام وبناء هوية جديدة للمجتمعات المحلية، تتجاوز الموروثات الوثنية والنصرانية وتؤسس لمرحلة جديدة من التحول الحضاري المنظم.

هذا الاتجاه التي أكدته بعض الروايات التاريخية والجغرافية، والتي أظهرت أن المساجد في مدينة زيلع لم تكن مجرد أماكن للعبادة، بل كانت تؤدي دورًا تربويًا وتعليميًا بالغ الأهمية، يكشف عن مظهر حضاري أصيل في السودان الشرقي خلال القرون الهجرية الوسطى، وهو الوصف الذي أورده ابن بطوطه في مستهل حديثه عن طقوس يوم الجمعة في مدينة مقديشو حيث قال " وكان لباسه في ذلك اليوم – يقصد السلطان – فرجية قدسي أخضر، وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان وهو مستقلد بفوطة حرير وهو معتم بعمامة كبيرة وضربت بين يديه الطبول والأبواق والأنفار وأمراء الأجناد أمامه وخلفه والقاضي والفقهاء والشرفاء معه ودخل إلى مشوره على تلك الهيئة وقعد الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد في سقيفة هنالك وفرش للقاضي بساط لا يجلس معه غيره عليه، والفقهاء والشرفاء معه . ولم يزالوا كذلك إلى صلاة العصر. فلما صلوا العصر مع الشيخ، أتى جميع الأجناد، ووقفوا صفوفاً على قدر مراتبهم ثم ضربت الأطبال والأنفار والأبواق والصرنايات، وعند ضربها لا يتحرك أحد، ولا يتزحزح من مقامه، ومن كان ماشيا وقف، فلم يتحرك إلى خلف ولا إلى أمام، فإذا فرغ من ضرب الطبلخانة سلموا بأصابعهم كما ذكرناه، وانصرفوا وتلك عادة لهم في كل يوم جمعة وإذا كان يوم السبت يأتي الناس إلى باب الشيخ فيقعدون في سقائف خارج الدار، ويدخل القاضي والفقهاء والصالحون والمشايخ والحجاج إلى المشور الثاني، فيقعدون على دكاكين خشب معدة لذلك، ويكون القاضي على دكانه وحده، وكل صنف على دكانه تخصهم، لا يشاركهم فيها سواهم ثم يجلس الشيخ بمجلسه، ويبعث إلى القاضي فيجلس عن يساره، ثم يدخل الفقهاء فيقعد كبراؤهم بين يديه، وسائرهم يسلمون وينصرفون، ثم يدخل الشرفاء، فيقعد كبراؤهم بين يديه، ويسلم سائرهم وينصرفون وإن كانوا ضيوفا جلسوا عن يمينه، ثم يدخل المشايخ والحجاج فيجلس كبراؤهم ويسلم سائرهم وينصرفون ثم يدخل الوزراء ثم الأمراء ثم وجوه الأجناد، طائفة بعد طائفة أخرى، فيسلمون وينصرفون ويؤتى بالطعام، فيأكل بين يدي الشيخ القاضي والشرفاء ومن كان قاعدا بالمجلس، ويأكل الشيخ معهم وإن أراد تشريف أحد من كبار أمرائه. بعث إليه فأكل معهم. ويأكل سائر الناس بدار الطعام، وأكلهم على ترتيب مثل ترتيبهم في الدخول على الشيخ ثم يدخل الشيخ إلى داره، ويقصد القاضي والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات، فما كان متعلقا بالأحكام الشرعية حكم فيه القاضي، وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى، وهم الوزراء والأسراء وما كان مفتقرا إلى مشاورة السلطان كتبوا إليه، فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره وتلك عادتهم [5].

هذا التصوير المبكر يعكس تعدد وظائف المسجد، ويوحي بوجود شكل من أشكال التعليم المنظم، والذي ينعقد بالمكان الموجود بجانب المسجد، وإن لم يُذكر مصطلح "الكتّاب" صراحة.

لقد عزز المسعودي هذا المعنى، إذ وصف زيلع بأنها "مدينة على ساحل البحر، يتردد عليها التجار المسلمون، وفيها مساجد يجتمع فيها الناس للعبادة والتعليم" [15]، ويبدو من وصفه أن المساجد كانت منفتحة على النشاط التجاري والدعوي، مما يجعل من الطبيعي أن تكون ملتقى للعلم أيضًا.

كما أكد الحميري لاحقًا أن "زيلع مدينة إسلامية بها مساجد كثيرة، يتعلم فيها الناس القرآن والعلوم الدينية، وهي مركز للتجارة والدعوة" [16]، هذا النص يقدم ربطًا مباشرًا بين التعليم والدعوة، وهي الوظائف ذاتها التي عادة ما كانت تقوم بها الكتاتيب، سواء داخل المسجد أو خارجه بإشراف فقهاء محليين.

وهو نفس المعنى الذي أكد عليه ابن سعيد المغربي بقوله: "وزيلع بها مساجد يتعلم فيها الناس القرآن والفقه" [17]، كما يضيف ابن بطوطة، خلال زيارته لزيلع، قائلاً: "وأهل زيلع من أهل الدين، يتعلمون في مساجدهم القرآن والفقه" [5].

أما عن العلوم التي كان يتم تدريسها في المساجد فكانت متنوعة، ففي مملكة كلوه تلك الحلقات الدراسية التي القيت فيها المحاضرات وتسمى Darases وليس المقصود بها إعداد العلماء وإنما لتدريس اللغة العربية وتفسير القرآن والفقه العامة الناس ، وقد أقيمت تلك الفصول بواسطة المشايخ بعد صلاة المغرب ومن معالم الإسلام في السودان الشرقي، تلك الحلقات الدراسية التي أقيمت في المساجد أو في منازل الأهالي الخاصة،

وفي المسـجد جلس المدرس أمام المحراب والطلبة في مواجهته ، ويتلى النص ثم يترجم إلى السـواحيلية، كما أنه كان يدرس العامة الناس بعض كتب الفقه في تلك المساجد [6] مثل: كتاب متن الزبد في الفقه الأحمد بن رسلان.

مما سبق يتضح أنه على الرغم من أن كتابات الرحالة لم تذكر صراحة وجود الكتاتيب، إلا أنها أكدت على وجود الوظيفة الأساسية للكتاب، والذي كان يؤديها بجوار المسجد، هذا التأكيد الذي ظهر في الدراسات الحديثة التي تناولت تلك الفترة ؛ إذ أشار باولز إلى أن "المساجد في زيلع كانت مراكز تعليمية"، وربط بين هذه المؤسسات الدينية والتعليمية بنمط الكتاتيب التقليدي [11]، وذهب باحث آخر لأبعد من ذلك عندما وصف هذه المساجد بأنها كانت "بمثابة كتاتيب" [18] وهو تصريح مباشر يعزز فرضية وجود الكتاتيب حتى لو لم يُستخدم مصطلحها في النصوص القديمة.

من اللافت أن تريمنغهام، في تحليله لانتشار الإسلام بالسودان الشرقي، وصف المساجد في زيلع بأنها "مراكز تعليمية رئيسية، حيث تعلم الناس القرآن والفقه، وكانت هذه المراكز تشبه الكتاتيب التقليدية في العالم الإسلامي [19]، في حين أشار آخرون أن "زيلع كانت مركزًا إسلاميًا هامًا، حيث لعبت المساجد دورًا مركزيًا في التعليم الديني، مما يشير إلى وجود نظام تعليمي مشابه للكتاتيب [20]، وهو التشبيه التي تناولته أحد الكتابات الحديثه أيضا بالقول بأن: "المساجد في مدن مثل زيلع ومقديشو كانت مراكز تعليمية رئيسية، حيث تعلم الناس القرآن والعلوم الإسلامية في إطار حلقات دراسية، تشبه الكتاتيب التقليدية" [21].

إن ما أوردته الروايات التاريخية المبكرة مع الدراسات الأكاديمية الحديثة يعزز من مصداقية الفرضية القائلة إن المساجد في زيلع كانت تؤدي دور الكتاتيب، حتى وإن لم يُذكر المصطلح صراحة. هذا الدور التعليمي الذي قام به المسجد لم يقف وجوده على منطقة بلاد الزيلع فقط، بل ظهر هذا الدور في باقي مناطق السودان الشرقي دون الإشارة الصريحة إلى ظهور الكتاتيب.

و جدير بالذكر أن الإسلام وثق صلة الأسرة الأفريقية بالمجتمع الأفريقي المسلم عن طريق المسجد حتى سادت بين أفراده الأخوة والتراحم، حتى رأينا ابن بطوطة يذكر أن سلطان مقدشو قد خصص وزيراً للضيوف، وأعد داراً لإطعام الرعية، وأخرى للضيوف، وثالثة للطلبة ينزل فيها الفقهاء والصالحون [5]. وقال عن مسلمي منبسى " هم أهل دين وعفاف وصلاح " [5]. وعن مسلمي كلوة والغالب عليهم الدين والصلاح [5] وقال القلقشندي عن مسلمي الحبشة " وعند أهلها محافظة على الدين" [9]، وقال ترمنجهام عن سكان شرقي أفريقية بعد أن تصبح الجماعة مسلمة يتغير أساس حياتها المشتركة [22].

هذا ولم يختلف دور المسجد في مقديشو كثيرا عما شهدته المناطق الأخرى في بلاد الزيلع وعلوة، إذ كانت مدينة مقديشو خلال الفترة من القرن 6-9 الهجري من أبرز المراكز الحضرية الإسلامية على الساحل الشرقي لإفريقيا، وقد اقترن ازدهارها الاقتصادي بدور ديني وتعليمي ملحوظ ارتبط بالمساجد. حيث أشار الإدريسي إلى أن مقديشو كانت "مدينة عظيمة عامرة بأهلها، فيها تجارة ومراكب، وأهلها مسلمون" [23]، ورغم غياب الإشارة من الإدريسي إلى وجود المساجد في مقديشو، إلا أن تحليل ابن خلدون جاء ليُكمل هذه الصورة، إذ بيّن أن "المساجد كانت هي المدارس في صدر الإسلام وفي أطرافه"، وأن التعليم، وخاصة تعليم القرآن، كان يتم داخلها، لا سيّما في المناطق البعيدة عن المراكز الكبرى، حيث كان الاعتماد على النمط التقليدي في التعلم، من حفظ وتلقين، يتم تحت إشراف الفقهاء والقراء [24] ورغم أن ابن خلدون لم يُشر إلى مقديشو تحديدًا، فإن تحليله ينطبق على البنية التعليمية في المدن الإسلامية على أطراف دار الإسلام، ومنها مدن الساحل لأفريقي الشرقي.

يُعزز هذا التصور ما جاء في دراسةPouwels ، الذي أشار إلى أن المساجد في مقديشو ومدن سواحلية أخرى "كانت مراكزًا تعليمية فعّالة"، حيث كان يُدرّس فيها القرآن والعلوم الفقهية بأسلوب الكتاتيب، الذي تميز ببساطة البناء، واستمرارية التعليم، وتعدد مستويات الطلاب، مما يضع مقديشو ضمن نسق التعليم التقليدي المنتشر في العالم الإسلامي الوسيط [11].

على الرغم من غياب الإشارة إلى دور المسجد والكتاب كإحدى المؤسسات التعليمية في مقديشيو فإن الدراسات الأثرية أكدت على وجود فضاءات مخصصة للتعليم داخل المساجد السواحلية، كانت تُستخدم غالبًا لتحفيظ القرآن"، ويُرجّح أنها كانت تشكل النواة التعليمية في المدن مثل مقديشو [25] بل كشفت الحفريات عن "غرف صغيرة مرافقة للمساجد القديمة في مقديشو"، يُعتقد أنها كانت تستخدم لأغراض التدريس، مما يُشير إلى تنظيم شبه مؤسسي للنشاط التعليمي داخل المسجد [26]، وبالتالي يتضح أن المساجد في مقديشو لم تكن مجرد دور عبادة، بل كانت حاضنات للهوية الإسلامية، عبر التعليم والتنشئة الدينية، وأن التعليم في مقديشو لم يكن معزولًا عن التحولات الحضارية الكبرى التي عرفتها المنطقة، بل كان جزءًا من منظومة ثقافية متكاملة.

بالإضافة لما سبق أكدت الدراسات الحديثة على وجود الكتاتيب كمؤسسات تعليمية بجوار المساجد في مقديشو حيث أكدت على أن مقديشو "كانت مركزًا لتعليم القرآن، مستمدة تقاليدها التعليمية من مراكز إسلامية أخرى، ولكن بصبغة محلية"، مما يدعم أطروحة وجود كتاتيب ذات طابع محلي داخل المساجد [27]، كما ذكرت كتابات أخرى أن نمط التعليم الديني في مقديشو يُشابه نماذج الكتاتيب في دول المغرب الإسلامي. من حيث اعتماد اللوح الخشبي، والحفظ، والارتباط بالمسجد [14].

من ناحية أخرى تشير المعطيات التاريخية إلى أن المساجد في مقديشو خلال العصور الوسطى لم تكن تقتصر على كونها دورًا للعبادة، بل مثلت مراكز تعليمية فاعلة لتعليم القرآن الكريم والفقه والعلوم الشرعية، وهو ما يتوافق مع طبيعة الكتاتيب. يصف ابن بطوطة في رحلته إلى المدينة بأنها "مدينة عظيمة" يجتمع فيها الطلبة في المساجد لتعلم القرآن، ويذكر: "ويجتمع بها طلاب العلم في مساجدها يتعلمون القرآن الكريم" [5]، ويؤكد هذا النص على الوظيفة التعليمية المنتظمة للمساجد، بما يشير إلى وجود نظام تدريسي شبيه بالكتاتيب من حيث المضمون والتنظيم. وقد دُوّن هذا وبنفس السياق، ابن سعيد المغربي حين قال أن مساجد مقديشو كانت مراكز لتعليم القرآن والفقه، مشيرًا إلى أن "فيها من المساجد ما يُدرّس فيه القرآن وتُفهم فيه مسائل الفقه" [17] هذا النص يعكس جانبًا أكثر تخصصًا من التعليم الديني داخل المساجد، بما يدل على تطور الهيكل التعليمي فيها وتعدد أغراضه.

أما ياقوت الحموي، فقد نقل وصفًا واضحًا لوظيفة المساجد التعليمية في مقديشو، حيث كتب: "ومساجدها عامرة، يتعلم فيها الناس القرآن" [28]. هذا التوصيف يعزز ما جاء في النصوص السابقة حول الطابع المؤسسي للتعليم داخل المساجد، والذي يقارب نظام الكتاتيب في ملامحه العامة.

أما في بلاد النوبة، فتظهر إشارات مماثلة في نصوص الرحالة والجغرافيين، حيث يصف الإدريسي مساجد النوبة بأنها أماكن يتلقى فيها الناس العلوم الشرعية، ويقول: "وفي مساجدها يتعلم الناس القرآن وسنن الدين" [10]، هذا التوصيف يكشف عن استقرار التعليم الديني في بلاد النوبة، وارتباطه الوظيفي بالمساجد، ما يجعلها شبيهة بالكتاتيب في مضمونها التعليمي.

يؤكد القلقشندي هذه الوظيفة التعليمية للمساجد بقوله: "وكانت المساجد ببلاد النوبة تُتخذ مواضع لتعليم الصبيان والفقهاء" [9]، هذا النص الذي يضع المساجد في موقع صريح كمؤسسات تعليمية، ويبرز وظيفتها في رعاية التعليم في مجتمعات لم تكن بها مدارس رسمية بالمعنى المؤسسي، ويعود ابن سعيد المغربي مرة أخرى ليؤكد ذات الفكرة بالنسبة لبلاد النوبة بقوله: "ومساجد النوبة معروفة بكثرة الطلبة وحفظة القرآن" [17].

أما بالنسبة للمناهج الدراسية التي كان يتم تدريسها في المساجد والكتاتيب، فقد وصف ابن بطوطة أن التعليم في تلك المساجد كان يشمل تدريس القرآن والتجويد والفقه الشافعي، حيث قال: "في المساجد يُعلَّم القرآن والتجويد والفقه الشافعي [5]، وذكر الإدريسي في وصفه لمساجد زيلع وعلوة أنها كانت مراكز لتعليم "القرآن والعربية وبعض الفقه" [10]،هذه الشهادات تعكس اتساقًا في المنهج التعليمي القائم آنذاك، وهو ما توصلت إليه أيضًا الدراسات الحديثة، حيث أشار ديفيد إدواردز إلى أن المناهج التعليمية في النوبة وعلوة تمحورت حول "القرآن، واللغة العربية، وبعض الفقه [13]، بينما أظهرت بعض الدراسات أن التعليم في كلوة ومقديشو اتبع نمطًا مماثلًا يضم القرآن والتجويد والفقه الشافعي [29] وأوضحت الدراسات الأخرى أن تعليم أبناء البجا كان يركّز على "القرآن والعربية بشكل خاص [30]، وبالتالي عكست تلك الروايات أن التعليم في المساجد والكتاتيب اشتمل أغلب الأمر على القران واللغة العربية.

أما طرق التدريس المتبعة ، فقد تميزت بالبساطة والفعالية، واعتمدت على المشافهة والتكرار، وهو ما وصفه ابن بطوطة بدقة حين قال: "الطلبة يجلسون حول الشيخ يرددون القرآن [5]، وهو نفس المعنى الذي أكّد عليه الإدريسي حين قال "أن التعليم يتم في حلقات يقرأ فيها الشيوخ ويكرر الطلاب ما يُتلى عليهم [10]، وقد علّق بوولز على ذلك بقوله إن "التعليم في هذه المناطق كان يعتمد على الحفظ الشفهي، مصحوبًا بتكرار يومي ومراجعة مستمرة [11] فيما بينت بعض الدراسات الحديثة الأخرى أن استخدام الألواح الخشبية بشكل ممنهج في كلوة ومقديشو كان الأداة الرئيسية في تلقين القرآن والكتابة [29]، بينما لاحظ البعض الأخر استمرار التعليم في حلقات يومية منتظمة في النوبة وعلوة، تعكس انتظام العملية التعليمية وارتباطها بالأنشطة الدينية اليومية [22].

قد اختلفت أنواع التلاميذ في هذه المؤسسات، لكنها حافظت على سمة الانفتاح الاجتماعي، إذ شملت أبناء القبائل والتجار المحليين، وعلى الرغم من صمت المصادر المعاصرة عن الحديث عن الطلاب الذين كانوا يتعلمون في المساجد إلا أن المراجع الحديثة أوضحت أن التلاميذ في علوة والنوبة كانوا من النوبيين وأبناء التجار [13]، وذكر البعض الأخر أن الكتاتيب في كلوة ومقديشو كانت تستقبل أبناء السواحليين والتجار على حد سواء [29] فيما بيّن أخرون أن كتاتيب البجا كانت تخدم أبناء القبائل المحلية إلى جانب أبناء التجار [30].

أما المعلمون، فقد تنوعت خلفياتهم بين الفقهاء المحليين والعرب الوافدين، وهو ما يدل على تداخل معرفي بين المراكز الإسلامية الكبرى والمجتمعات المحلية. وقد أشار ابن بطوطة إلى وجود فقهاء يدرّسون في زيلع ومقديشو [5]، بينما أكد القلقشندي أن علماء النوبة وعلوة كانوا يقومون بالتدريس في المساجد [9] وقد دعّمت هذه الشهادات الروايات الحديثة، إذ أشارت إلى أن فقهاء محليين وعربًا كانوا يقومون بالتعليم في زيلع ومقديشو [18]، بينما ذكرت عن المعلمين في علوة والنوبة كانوا من النوبيين والعرب على حد سواء [13]، في كلوة، ذكرت وجود معلمين سواحليين وعرب يعملون سويًا في الكتاتيب [29].

علاوة على ما سبق، وإذا كان هذا البناء التعليمي قد تطور بهذه الصورة، فإن الدعم الذي وفره الحكام والتجار كان عاملًا حاسمًا في ترسيخه واستمراره. فقد بادر الحكام ببناء المساجد التي احتضنت الكتاتيب، كما في زيلع حيث مول الحكام بناء المساجد دعمًا للعلم والدين [11]، وهو ما تكرر في علوة والنوبة [13]، أما التجار، فقد أسهموا بتمويل بناء الكتاتيب وتوفير رواتب للمعلمين [18]، هذا الدعم كان ظاهرًا أيضًا في النوبة وعلوة، كما أن التجار في كلوة ومقديشو قاموا بتمويل حلقات التعليم القرآني [31].

فكان هؤلاء التجار يفتحون الكتاتيب لتحفيظ القرآن وتعليم الثقافة الإسلامية لأبناء المسلمين والوثنيين معاً، إذ كانوا يقبلون على تلك المدارس بشغف. وأكثر من هذا فإن هؤلاء التجار كانوا يرسلون المتفوقين من الطلاب إلى مساجد العلم ومدارسه في القاهرة والحرمين ودمشق وغيرها للتعمق في دراسة الإسلام يرتشفون من معين لا ينضب. وكان العالم الإسلامي حفياً بهؤلاء الطلاب، فقد خصص لهم أماكن في دور العلم ومساجده، كالأزهر ومسجد دمشق الجامع وغيرهما، للإقامة وطلب العلم، وأمدهم بالعطاء حتى يتمكنوا من طلب العلم والتعمق في دراسة الإسلام : عقائده وعباداته وتشريعاته وأخلاقه [32] ,[5]، ليعودوا فينشروه بين سكان البلاد التي أتوا منها وليوضحوا لأهلهم وذويهم مبادئه وأحكامه. وقد قام من رجع منهم بدور الداعية والقاضي والفقيه والزعيم أيضاً، بل أوجدوا نهضة علمية وثقافية ساعدت على نشر الإسلام في شرقي أفريقية والحبشة [33].

كان من أهم المساجد في مدينة مقديشو المسجد الكبير وهو مسجد له مئذنة اسطوانية، وكانت بداية العمل فيه أول المحرم من عام (636 هـ / 1278م)، وهناك مسجد فخر الدين وقد أنشئ هذا الجامع في نهاية شعبان (667 هـ / 1269م)، وأيضا مسجد أربع ركن وقد بناه السلطان أبو بكر فخر الدين ، وكان أول سلطان المقديشو، كما جاء في الروايات المحلية [34].

يتبيّن من ذلك أن المناهج التعليمية في المساجد والكتاتيب بالسودان الشرقي والسودان بين القرن السادس والتاسع الهجري ارتكزت أساسًا على القرآن واللغة العربية والفقه، وأن طرق التدريس كانت شفهية في أغلبها، واعتمدت على الحلقات والألواح الخشبية، وأن التلاميذ انحدروا من خلفيات اجتماعية متعددة، فيما قام بالتدريس فقهاء محليون وعرب، جميعهم مدعومون من حكام وتجار أدركوا أهمية هذه المؤسسات كوسيلة لنشر الإسلام وتعميق حضوره الثقافي والاجتماعي، مما جعل هذه المساجد والكتاتيب مظهرًا حضاريًا متكاملًا يعكس تفاعل الدين والعلم والمجتمع والاقتصاد في بنية متماسكة ومستمرة.

ثانيا: المدارس:

افتقدت كتابات المؤرخين المعاصرين لمعلومات واضحة عن المدرسة كأحد مظاهر الحضارة الإسلامية في السودان الشرقي، وارتبط وجودها بالمساجد ارتباطًا كبيرا، وشكّلت من خلاله حلقة رئيسة لنشر الإسلام وتعليم العربية، خاصة في مناطق التحوّل من المسيحية إلى الإسلام. وإن أشارت بعض الكتابات إلى المدارس بشكل واضح، كما ذكر ابن بطوطة بقوله:" كانت مدينة مقديشو أصيلة البناء فسيحة الأرجاء ، شهيرة بحكمها سلاطين الصومال ومشايخه بالطريقة الوراثية ، يرث الابن الولاية عن أبيه وسكانها أهل إسلام ودين وعفاف ، وهي مدينة ذات بهاء ، وهي متطورة تبعاً لتطور حضارتها الإسلامية ويتدفق إليها الآن التجار من أقطار آسيا وأفريقيا ، وصارت مركزا علميا مهما ، يشع منها نور الإسلام ، وكان الطلاب يأتون إليها وفوداً من الأقاليم والمدن الصغيرة والمجاورة والبادية لتلقي العلوم الدينية، بعد أن يكونوا قد أتموا حفظ القرآن الكريم ، لأنها كانت ذات أثر كبير في النهضة التعليمية بالمنطقة ، وفي سائر تعاليم الدين الإسلامي ، حيث كانت تضم بين جنباتها ومدارسها نخبة من علماء الفقه والشريعة والدين واللغة العربية وآدابها، وهي مجتمع للسفن والقوافل ، التي لا تنقطع ، وخصوصاً القوافل بينها وبين هور دائما متصلة ومستمر ، وقد توالى المهاجرون إليها نظراً لمركزها التجاري [5].

كما ظهرت إشارات لوجود المدارس في بعض الروايات الأخرى وذلك من خلال ذكر وظيفتها الأساسية فقد أشار الإدريسي إلى أن "المساجد في علوة وزيلع هي مراكز تعليم القرآن والعربية" [10]، مما يدل على أن المساجد كانت تؤدي دور المدارس في العملية التعليمية.

قد أكدت الدراسات الحديثة هذا النمط، فأشارت إلى المدارس في علوة والنوبة بأنها "كانت مساجد بُنيت لتعليم القرآن [13] كما أكدت أيضا على أن المدارس كانت عبارة عن "حلقات في المساجد أو مبانٍ مجاورة [29]، أما في سواكن فكانت "المساجد كالمدارس الأساسية [30]. وبالتالي

تدل هذه الكتابات على أن التعليم كان متداخلًا مع البنية الدينية، وهو ما يعكس خصوصية المجتمعات الإسلامية الأفريقية التي اعتمدت على المسجد كمؤسسة شاملة ذات وظائف تعليمية وروحية في آنٍ واحد.

بناء على ما سبق وافتقار منطقة السودان الشرقي إلى المدارس بتعريفها المعروف اليوم ، فإن المدارس من حيث التنظيم، لم تتبع نظامًا مركزيًا كما في مدارس المشرق، بل تميزت ببساطة بنيويّة واضحة؛ وهو ما وضحته الكتابات التاريخية بالقول إلى أن "في المساجد حلقات يومية يقودها شيخ" [5]، وذكر القلقشندي أن "في مساجد علوة والنوبة حلقات يشرف عليها علماء" [9]،كما أكد ياقوت الحموي أن "في مساجد سواكن ومقديشو حلقات يومية لتعليم القرآن" [28] أما الدراسات الحديثة فقد بينت أن المدارس كانت عبارة عن حلقات يومية في المساجد [30] وأن الدروس التعليمية كانت تتم في جلسات صباحا ومساء [35]، ومن الواضح أن هذا النظام التعليمي كان يتناسب مع الواقع الاجتماعي والاقتصادي، خاصة في المناطق الريفية والموانئ التجارية.

أما من حيث الوظيفة التعليمية للمدارس فلم تختلف كثيرا عن وظيفة المسجد؛ نتيجة لارتباطها به في كثير من الأحيان حيث أدت هذه المدارس دورًا محوريًا في ترسيخ الإسلام وتعليم اللغة العربية، بالإضافة إلى تكوين هوية ثقافية إسلامية موحدة. فكما يذكر ابن بطوطة، كانت "المساجد تعلم القرآن والفقه وتنشر الإسلام" [5]، ويؤكد الإدريسي على أن "المساجد تعلم القرآن وتساعد في نشر الإسلام" [10]، وهو ما أكدت عليه الدراسات الحديثة بالقول أن المدارس في النوبة وعلوة "نشرت الإسلام والعربية" [13] بل أن المدارس في مقديشو وزيلع "عززت الهوية والتجارة [31] وهو نفس الدور التي أدته بين قبائل البجا حينما "عززت الوحدة الإسلامية" بين قبائل البجا [36]. بناء على ذلك يتضح أن التعليم كان أحد محركات التحول الديني والاندماج الثقافي، وأنه أدى أدوارًا استراتيجية في مقاومة التأثيرات المسيحية السابقة وفي توحيد المجتمعات الإسلامية الوليدة.

بالإضافة لما سبق، كان دعم الحكام والتجار للمدارس عاملًا حاسمًا في استمرار المدارس وانتشارها، ولم يكن الدعم مقصورًا على السلاطين، بل شمل التجار أيضًا، فقد ذكر ابن بطوطة أن "التجار يمولون المساجد لتكون مراكز تعليم" [5]، وأشار الإدريسي إلى أن "التجار في سواكن يدعمون بناء المساجد" [10]، وأكّد القلقشندي هذا الدعم من قبل التجار العرب في علوة والنوبة [9]، ولقد أكدت الدراسات الحديثة هذا الدعم، حيث أشار الباحثون الحديثون إلى أن التجار العرب والهنود قدموا التمويل في زيلع ومقديشو ، وكذلك في علوة والنوبة ، وفي كلوة وفي سواكن [36].

من جانب أخر أنشأ بعض الدعاة مدارس في المدن التي زاروها، حيث اختلف اليها أطفال الوثنيين والمسلمين على السواء، فحفظوا القرآن وتفقهوا في الإسلام، فإذا نجح الداعي المسلم على هذا النحو بما له من حظ موفور من العلم والمعرفة السامیتین، فإنه لا يتوانى عن أن يؤثر تأثيراً كبيراً في الناس الذين جاء ليعيش بينهم، ويساعده على ذلك مشابهة عاداته وطباعه لعاداتهم وطباعهم ويتزوجه منهم واستقراره بينهم، تنتشر بينهم معارف الإسلام شيئاً فشيئاً بطريقة طبيعية [22]. ولم يكن هؤلاء العلماء والدعاة من أبناء البلاد فقط، بل كان يقد كثير من العلماء والدعاة من أرجاء العالم الإسلامي ممن على الممالك الإسلامية بإفريقية الشرقية، وكانت لهم مكانة سامية رفيعة لدى سلاطينها وشعوبها معاً، فيحدثنا ابن بطوطة في القرن الرابع عشر الميلادي، بأن قاضي مقدشو ابن البرهان مصري الأصل، وأن مكانته لدى السلطان والشعب معا فاقت كل وصف [5].

بالتالي يتضح من هذا الدعم أن التعليم لم يكن فقط مشروعًا دينيًا، بل أيضًا اقتصاديًا واجتماعيًا تدعمه النخب الحاكمة والتجارية لتعزيز الاستقرار الثقافي والاجتماعي، كما أن الربط بين التعليم في المسجد والمدرسة، يوضح أن المدارس لم تكن مجرد مؤسسات تعليمية، بل كانت أدوات حضارية في مشروع إسلامي متكامل في السودان الشرقي والسودان، صاغه العلماء، الحكام، والتجار بالتفاعل فيما بينهم.

ثالثا: الزوايا:

أطلق لفظ الزاوية على البناء أو مجموعة الأبنية ذات الطابع الديني تشمل حجرة للصلاة بها محراب وضريح لأحد الأولياء وغرفة مخصصة لضيوف الزاوية والحجاج والطلبة، فهي الأقرب إلى أن تكون مدرسة دينية من أن تكون داراً للضيافة. وتطلق أيضاً على المكان الذي تنشئه إحدى الطرق الصوفية كما وسميت بدار الكرامة ثم أطلق عليها دار الضيوف. والزوايا هي أمكنة يتجمع فيها الصوفيون الذين ينشرون دعوتهم من خلالها، ويهيئون كل الأسباب لنشر الوعي الديني الصوفي المستمد من تعاليم الدين الإسلامي.

أطلقت العامة اسم الزاوية على المكان الذي لا تقام فيه الجمعة تمييزاً لها عن المسجد الجامع بل وتطلق على ناحية من نواحي المسجد الذي تقام فيه بعض جلسات العلم [23]، والسودان كغيره من البلدان الإسلامية عرف الزوايا قبل قيام مملكة الفونج وعرفت بأنها داراً للعلم والعبادة ومأوى الغرباء.

وبالتالي فإن الزوايا تعد مؤسسات دينية واجتماعية وتعليمية في العالم الإسلامي، تركز على التعليم الديني، التصوف، والخدمات الاجتماعية. وفي السودان الشرقي والسودان خلال القرن 6-10 هـ، لم تُذكر "الزوايا" كمؤسسات مستقلة بشكل واسع في المصادر التاريخية، لكن المساجد والحلقات الصوفية داخلها أو بجوارها لعبت أدوارًا مشابهة. في مناطق مثل علوة والنوبة، حيث ساعدت هذه المؤسسات على نشر الإسلام، بينما في المناطق الساحلية (زيلع، مقديشو، كلوة، البجا)، ارتبطت بالتجارة والتصوف .

بالرغم من إغفال بعض المصادر التاريخية الحديث عن الزوايا كأحد مراكز انتشار الإسلام أفريقيا وأحد المظاهر الحضارية بها، إلا أن الناظر المدقق للمعلومات التي قدمتها المصادر المعاصرة يستطيع أن يستشف الأدوار والوظائف التي كانت تقوم بها الزوايا في عدد من الأقطار والمدن الإسلامية المجاورة، فمن الملاحظ في روايات الرحالة والمؤرخين، إضافة إلى الدراسات الحديثة، أن المساجد في مناطق السودان الشرقي والسودان كانت تحتضن حلقات منتظمة للذكر وتعليم القرآن، تُدار غالبًا من قبل شيوخ صوفيين. وقد ورد في وصف الإدريسي لمجالس العلماء والمتصوفة في علوة وزيلع، حيث قال: "في مساجد علوة وزيلع يجتمع العلماء والمتصوفة [10] وبالتالي ووفقا للتعريف السابق للزوايا يتضح أن المؤرخين المعاصرين لم يفرقوا بين المساجد والزوايا، وما يؤكد هذا الارتباط هو رؤية المؤرخين الجدد لوجود الزوايا في منطقة السودان الشرقي، فقد ذكرت بعض الدراسات أن الزوايا في علوة والنوبة كانت عبارة عن حلقات صوفية داخل المساجد، خاصة بعد التحول الديني من المسيحية إلى الإسلام [13]: كما أشار البعض الأخر إلى وجود هذه الزوايا في كلوة ومقديشو كمجالس صوفية في المساجد أو مبانٍ مجاورة [29].

يُلاحظ من هذه الإشارات المتعددة أن الزوايا لم تكن بالضرورة أبنية مستقلة كما في المغرب أو مصر، بل كانت تتخذ شكلاً وظيفيًا يتداخل مع المسجد، وتمارس فيه أدوارًا تربوية وروحية. ففي سواكن مثلًا، أشار أندرو بول إلى أن: "المساجد في سواكن كانت مراكز صوفية [30]، مما يعزز فكرة وجود تنظيم روحي وتعليمي داخل المساجد يُقارب وظيفة الزوايا.

أما من حيث تنظيم هذه الحلقات، فيوضح ابن بطوطة أن تلك الحلقات كانت تُدار يوميًا بقيادة شيوخ صوفيين، فقال: "في زيلع ومقديشو حلقات يومية للذكر يقودها شيخ [5]، وقد كرر الإدريسي هذه الملاحظة بقوله: "في مساجد علوة وزيلع حلقات يومية للذكر والتعليم" [10]، مما يشير إلى

انتظام واضح في ممارسة التعليم والذكر، أما القلقشندي فأبرز جانب الإشراف العلمي على هذه الحلقات: فقال "في النوبة وعلوة حلقات يشرف عليها علماء صوفيون [9]، وهو ما يعكس وجود هيكل قيادي وروحي داخل هذه المؤسسات.

وتؤكد الدراسات الحديثة هذه التنظيمات، إذ يرى راندال بوك أن الحلقات في زيلع ومقديشو كانت تُنظّم يوميًا وتُدار من قبل شيوخ صوفيين [11]. كما يشير مارك هورتون إلى تنظيمها كان يتم في المساجد أو غرف مجاورة في كلوة [35] ويُضيف جاي سبولدينغ أن هذه الحلقات في النوبة وعلوة كانت تُمارس كجلسات صوفية يومية [37].

أما من حيث الدور الذي لعبته هذه الحلقات أو الزوايا، فقد تنوع ما بين تعليم القرآن، الذكر، نشر التصوف، وتعزيز الوحدة الاجتماعية والدينية. حيث ساعدت الزوايا على نشر التصوف بعد التحول من المسيحية، بل كان لها دور واضح في توحيد القبائل [36]. ويُفهم من هذه المعطيات أن الزوايا في السودان الشرقي والسودان لم تكن فقط مراكز للعلم والعبادة، بل لعبت دورًا سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا في المجتمعات التي نشأت فيها، وأسهمت في تعزيز الهوية الإسلامية. ويجمع ذلك كله إلى أن الزوايا في السودان الشرقي والسودان، رغم غيابها كمؤسسات رسمية مستقلة، كانت حاضرة بقوة في الحياة اليومية، متغلغلة في نسيج المسجد والمجتمع، ومُمثِّلة لمظهر أصيل من مظاهر الحضارة الإسلامية في تلك المناطق بين القرنين السادس والتاسع الهجريين.

رابعا: الخلوة:

اتخذت الخلوة شكلًا مؤسسيًا وشعبيًا في آنٍ واحد، حيث ارتبطت بالخدمات التعليمية والدينية والاجتماعية في البيئة الإسلامية الإفريقية. ويُلاحظ أن هذه المؤسسات نشأت في محيط المساجد وتطورت في ظلّ دعم الحكّام والتجار وحرصهم على نشر الإسلام وتعليم مبادئه في المجتمعات المحلية وعرفت الخلوة في السودان باسم أخر وهو المسيد، إذ أطلق هذا اللفظ في السودان على مكان تحفيظ القرءان ودراسة علومه واتخذه المتصوفة مكاناً لأداء شعائرهم، وهي كلمة نوبية وتعني في لهجة الدناقلة المسجد الذي شيد من الحجر [2]. ولعل كلمة مسيد كان مصدرها أهل فاس دخلت السودان مع مقدم العلماء المغاربة والتجار الذين وفدوا إلى السودان، وتطلق تلك الكلمة في وسط وشمال وشرق السودان المبنى الذي يضم المسجد ويحيط به من جميع جهاته ما عدا جهة القبلة – ويكون في هذه المساكن مبنى الدراسة الرئيسي، ولا يطلق هذا الاسم على المسجد الذي لا يحوي بجانبه كل هذه المنشآت وتقوم فيه الصلوات فحسب [2].

كما أنه لم يختلف النظام المتبع في الخلوة في السودان عن النظام المتبع في الكثير من كتاتيب البلدان الإسلامية في الأخذ بأسلوب الحفظ والاستظهار وتقديم تدريس القرءان الكريم على غيره من العلوم. يرجع ذلك إلى أن تدريس علوم أخرى وتقديمها على تحفيظ القرءان لم يكن ممكناً عملياً في مؤسسة قامت للاهتمام بالقرءان وعلومه [38]. ولقد تمسك سلاطين كلوه بمبادئ الدين الإسلامي، وكان لذلك أثره في حرصهم على التعليم الديني، وفي رعاية رجاله، وكان التعليم الديني يمارس فيما يسمى (بالخلوة) فيتم فيها تعليم القرآن الكريم وحفظه وكانت تتبع فيها طرقاً وأساليب مجربة تكفل بلوغ الغاية من حفظ وتجويد وتعليم القرآن الكريم، وقد اتبعت طريقة الحلقات المستديرة التي يديرها الفقهاء المسلمون الذين كانوا ينهلون العلم من المدارس والجوامع الإسلامية العريقة في مصر والعراق، وفي هذه الحلقات كان يظهر المعلم في الخلوة وهو ممسك بعصاه التي لا تفارقه وهي جاهزة للوعيد، ويعاقب بها التلميذ المتلاعب غير الجاد، وكان والد التلميذ يعطي صلاحيات واسعة لمعلم الخلوة تساعده على أداء واجبه نحو الطفل، وترشيد سلوكه في تعليمه القويم، وكان العقاب عنصراً حاسماً في حفظ القرآن ، وكان يبدأ بالتأنيب والتوبيخ ويتصاعد إلى التهديد والتخويف كعقاب نفسي، وكان للحاصلين على العلم في السودان الشرقي مكانة مرموقة، ويحظون بمركز ممتاز في المجتمع، بعد أن يجبرهم شيوخهم على حضور حلقات الدروس التي يلقونها، وعندما يكملون دراستهم يمنحون إجازة تعطيهم حق القراءة على الآخرين [6].

قد أشار ابن بطوطة عند زيارته لمقديشو في القرن الثامن الهجري إلى ما يعكس هذا الارتباط بين المسجد والتعليم، حيث قال: "ولأهل هذه البلدة... رغبة في الفقهاء وطلبة العلم، ويجري عليهم أرزاق معلومة" [5]. ويُفهم من هذا النص أنّ المجتمع في مقديشو – وهي من مراكز الحضارة الإسلامية بالسودان الشرقي– قد احتضن طلبة العلم والمعلمين ضمن سياق تنظيمي قائم على الرعاية، ما يشير إلى وجود نظم تعليمية، كالخلوة، توازي الكتاتيب في المشرق الإسلامي. كما أن ربط ذلك بالمسجد يدل على التلازم الوظيفي بين المؤسسة الدينية والتعليمية. ويؤكد ذلك ما ورد لدى الإدريسي في وصفه لمدينة زيلع في القرن السادس الهجري، حيث قال: "أكثر أهلها مسلمون، لهم مساجد يجتمعون فيها للصلاة والدعاء وتعليم الصبيان" [10].

يفيد هذا النص بوجود نشاط تعليمي منتظم في محيط المساجد، ما يعكس صورة مبكرة للخلوة أو الكُتّاب الذي يرتبط بالمسجد وظيفيًا، ويتضح أن التعليم كان يشمل الصبيان في المراحل الأولى، وهو ما يتوافق مع طبيعة الخلوة التي كانت تعتمد على الألواح الخشبية لتعليم القرآن.

قد وصف محمد حاجي مختار هذا النمط التعليمي في المناطق الصومالية، فقال: "الخلوة ليست مجرد مكان لتعليم القراءة والكتابة، بل هي نظام متكامل للتنشئة الإسلامية، يشمل حفظ القرآن الكريم والسلوكيات الدينية، وتُدار غالبًا من قبل فقيه محلي له مكانة روحية" [31]. وبالتالي يظهر هذا التوصيف أن الخلوة تجاوزت الدور التعليمي الصرف لتتحول إلى مؤسسة دينية واجتماعية تعيد تشكيل الفرد وفق النموذج الإسلامي. كما أنّ حضور الفقيه كمعلّم وكقدوة يعكس أهمية الدور الرمزي للخلوة في تكوين الشخصية المسلمة.

أما في النوبة، كان لنشر الإسلام تأثير بالغ في تحويل القرى المسيحية إلى مراكز تعليمية إسلامية، حيث أشار المؤرخ تريمنغهام إلى أن "تقدم الإسلام في بلاد النوبة تزامن مع بناء المساجد وافتتاح الكتاتيب، وكانت الخلاوي جزءًا من ذلك التمدد" [22]. وبالتالي يدلّ هذا التحوّل على تزامن انتشار الإسلام مع تأسيس المؤسسات التعليمية، خاصةً في المناطق التي شهدت تحولًا دينيًا، حيث أصبحت الخلوة وسيلة لتوطين الإسلام ثقافيًا وتعليميًا. كما أن ارتباطها بالمسجد في هذه المرحلة يُعدّ مؤشرًا على وظيفتها التبشيرية والتربوية، تلك الوظيفة التي لم تختلف كثيرا عما كان عليه الوضع في منطقة كلوة، إذ أن "النظام التعليمي التقليدي هناك اعتمد على الألواح، وكان الأطفال يجتمعون في حلقات داخل فناء المسجد أو في ساحات متصلة بالبيت أو الزاوية، وتُعرف هذه الأماكن محليًا بالخلوة" [39]. بالإضافة لما سبق وفي منطقة البجا رغم قلة المصادر، إلا أنّ الرحالة الأوربيين في القرن التاسع الهجري لاحظوا وجود جماعات تحفّظ الأطفال القرآن في أكواخ مبنية من سعف النخيل، تحت إشراف شيوخٍ محليين يُحترمون باعتبارهم "أصحاب علم ودين" [40].

بناء على ذلك يوضح هذا الوصف البيئة المادية للخلوة، حيث البساطة في الوسائل المستخدمة للتعليم داخل الخلوة، بالإضافة إلى الأسلوب التعليمي القائم على التلقين والحفظ، مما يتفق مع النمط العام للتعليم الأولي في المجتمعات الإسلامية. كما أن تعدد مواقع الخلوة (في المسجد، أو البيت، أو الزاوية) يعكس اندماجها في النسيج الاجتماعي والديني للمجتمع المحلي.

وبناء على تلك المعلومات يتضح أن نموذج الخلوة لم يكن حكرًا على الحواضر الكبرى، بل امتدّ إلى المناطق الريفية والنائية، ما يدل على شمولية التعليم الإسلامي في تلك المرحلة، واستيعابه لمختلف البيئات.

من جانب أخر أجمع الباحثون على أن دعم الحكام والتجار ساهم في انتشار هذه المؤسسات، فقد ذكر أن "تجّار زيلع وعيذاب كانوا يتبرعون للفُقهاء والزوايا ويقيمون المساجد والخلاوي كنوع من التقوى وكسب البركة" [31]، وهو ما يوضح أن العلاقة بين التجارة والتعليم كانت وثيقة، حيث ساهم التجار المسلمين في دعم التعليم، وربطوا بين المصالح الاقتصادية والدينية. وهو ما يعد عنصرًا مركزيًا في فهم انتشار الإسلام ومؤسساته التعليمية في إفريقيا الشرقية والسودان خلال الفترة من القرن السادس إلى التاسع الهجري.

أثر المظاهر التعليمية في ظهور المذاهب الدينية والطرق الصوفية

كان المذهب السائد في شرقي أفريقيا هو المذهب الشافعي، رغم أن حكام كلوه كانوا من الشيعة، وقد انتشر الشيعة الزيدية في المنطقة الشمالية حول ساحل بنادر وأرخبيل لامو ، أما الشيعة الشيرازيين (الفرس) فانتشروا حينها حول كلوه وجزر مافيا وبمبا وزنجبار [41]، مما يعني أن المذهب الشافعي انتشر في العديد من المدن في السودان الشرقي، وصارت لهذا المذهب فيما يبدو في المصادر السيادة المذهبية في العديد من بقاع هذه البلاد على باقي المذاهب الأخرى، وربما كان من أسباب ذلك الوجود الواسع ل "مذهب الشافعي" في السودان الشرقي انتشاره في بلاد اليمن، ومن المعلوم أن اليمن كانت أكثر البلاد تأثيرا مذهبيا ودينيا لاسيما في بلاد القرن الأفريقي. وأسهم اليمنيون أكثر من غيرهم في انتشار الإسلام في هذه البلاد. وحسب ابن بطوطة، ساد مذهب الشافعي خلال القرن 8 هـــــ / 14م في العديد من بلاد السودان الشرقي، إذ كان المذهب منتشرا في مقدشو، وكلوة، ومباسا [5]، وغيرها من ممالك السودان الشرقي. كما انتشر المذهب في بلاد الزيلع " التي تعد من أهم المناطق التي استقر بها هذا المذهب في السودان الشرقي "[42] وكانت غالبية السكان في تلك البلاد على المذهبين الحنفي والشافعي أكثر من غيرهما، بينما كان مذهب الإمام مالك يكاد لا يكون له تواجد بشكل واضح مقارنة بحاله في شمال أفريقيا، وفي بلاد السودان الغربي والأوسط [9].

الخاتمة:

مما سبق ذكره في هده الدراسة نتستنتج النقاط الاتية:

تناول هذا البحث بعضا من المظاهر الحضارية في السودان الشرقي وشرق إفريقيا خلال القرون 6–10هـــ/12–16م، من خلال دراسة المؤسسات الدينية والتعليمية والاجتماعية التي أسهمت في بناء الحضارة الإسلامية بالمنطقة، والكشف عن دورها في نشر الإسلام وترسيخ الثقافة العربية الإسلامية بين المجتمعات المحلية. وقد أظهرت الدراسة أن السودان الشرقي وشرق إفريقيا لم يكونا مجرد مناطق هامشية في العالم الإسلامي، بل مثّلا فضاءً حضاريًا نشطًا شهد تفاعلات ثقافية ودينية واقتصادية أسهمت في تشكيل هوية إسلامية متميزة.

وقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج، من أبرزها:

1. أسهم انتشار الإسلام في السودان الشرقي وشرق أفريقيا في إحداث تحولات حضارية عميقة شملت الجوانب الدينية والتعليمية والاجتماعية والثقافية، وأصبح العامل الأكثر تأثيرًا في تشكيل هوية المنطقة خلال الفترة محل الدراسة.
2. أدت الهجرات العربية والتجارة البحرية والبرية دورًا رئيسًا في نقل الإسلام والثقافة العربية إلى المنطقة من خلال المظاهر التعليمية، وأسهمت في توثيق الصلات بين السودان الشرقي وشرق أفريقيا وبين المراكز الحضارية الإسلامية في الجزيرة العربية ومصر واليمن.
3. مثّلت المساجد النواة الأولى للحياة الدينية والعلمية، ولم تقتصر وظيفتها على أداء الشعائر الدينية، بل تحولت إلى مراكز للتعليم والقضاء والوعظ والإرشاد وحل النزاعات ونشر الثقافة الإسلامية.
4. أدت الكتاتيب والخلاوي دورًا محوريًا في تعليم القرآن الكريم واللغة العربية والعلوم الدينية، وأسهمت في إعداد أجيال من العلماء والفقهاء والدعاة الذين حملوا رسالة الإسلام إلى مختلف مناطق السودان الشرقي وشرق إفريقيا.
5. كشفت الدراسة عن الدور البارز للعلماء والمتصوفة في نشر الإسلام بالوسائل السلمية، حيث أسهموا في ترسيخ القيم الإسلامية وتعزيز الاستقرار الديني والاجتماعي داخل المجتمعات المحلية.
6. كان للحكام والسلاطين والتجار دورٌ مهم في دعم المؤسسات الدينية والتعليمية من خلال بناء المساجد ورعاية حلقات العلم والإنفاق على الخلاوي والأنشطة التعليمية، الأمر الذي ساعد على استمرار الحركة العلمية وازدهارها.
7. أسهم الموقع الجغرافي المتميز للمنطقة على طرق التجارة الدولية في تعزيز التواصل الحضاري بين إفريقيا والعالم الإسلامي، وهو ما انعكس على ازدهار المراكز الساحلية مثل زيلع ومقديشو وغيرها من المدن التي تحولت إلى مراكز إشعاع ديني وثقافي وتجاري.
8. أظهرت الروايات التاريخية وكتابات الرحالة والجغرافيين أن المظاهر الحضارية في السودان الشرقي وشرق أفريقيا كانت أكثر تنوعًا وتطورًا مما تصوره بعض الدراسات التقليدية، وأن المنطقة امتلكت مؤسسات تعليمية ودينية كان لها أثر واضح في الحياة الفكرية والثقافية.
9. ساعدت المؤسسات الدينية والتعليمية في ترسيخ اللغة العربية ونشر الثقافة الإسلامية، مما أسهم في تعزيز الوحدة الثقافية بين سكان المنطقة وربطهم بالحضارة الإسلامية الأوسع. وتؤكد هذه النتائج أن المظاهر الحضارية في السودان الشرقي وشرق أفريقيا شكّلت أحد أهم روافد الحضارة الإسلامية في القارة الأفريقية، وأن المؤسسات الدينية والتعليمية كانت الأداة الرئيسة في نقل المعارف والقيم الإسلامية وترسيخها، بما أسهم في بناء مجتمع ذي هوية حضارية متميزة امتد تأثيرها لقرون طويلة، الأمر الذي يجعل دراسة هذه المظاهر ضرورة علمية لفهم تاريخ المنطقة ودورها في مسيرة الحضارة الإسلامية.

قائمة المصطلحات والمفاهيم:

- الكتاتيب: المكتب أو الكتاب جمعها كتاتيب أو مكاتب اختلف اللغويون في دلالة اللفظ. ففي لسان العرب جاءت الكلمة إشارة لموضع التعليم. قال بعضهم المكتب موضع التعلم. والمكتب – بالكسر – المعلم والكُتاب بالضم الصبية. ومن جعل الموضع الكُتاب فقد أخطأ ومن ظاهر النص إن كلمة كُتاب ومكتب استعملت للدلالة على المكان الذي يتعلم فيه الصبية، يقول ابن خلدون: اعلم إن تعليم الولدان القرءان شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرءان وما يحصل به من ملكات [24].
- اتفاقية العرب والنوبة في العام 30هـــ: المعروفة تاريخيًا ب"البقط"، هي معاهدة تم عقدها بين المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح، والي مصر في عهد الخليفة عثمان بن عفان، والنوبة (مملكة المقرة المسيحية في شمال السودان). هذه الاتفاقية تُعدّ من أوائل الاتفاقيات الدبلوماسية في التاريخ الإسلامي، وهدفت إلى تنظيم العلاقات بين الطرفين وتجنب الحرب بعد محاولات عسكرية متبادلة ونصوصها كالتالي: اتفق الطرفان على وقف الأعمال العدائية وعدم الاعتداء على أراضي بعضهما البعض. سُمح للنوبيين بدخول مصر للتجارة، كما سُمح للمسلمين بدخول أراضي النوبة لنفس الغرض. التزم النوبيون بدفع إتاوة سنوية للمسلمين، تُقدر بحوالي 360 أو 400 عبد (رقيق) مقابل ضمان الأمن. في المقابل، قدم المسلمون كميات من الحبوب والملابس والخيول.سُمح للأفراد من الطرفين بالتنقل بحرية دون التعرض للاعتقال أو الأذى، بشرط الالتزام بالقوانين. تضمنت الاتفاقية السماح للمسلمين ببناء مسجد في دنقلا (عاصمة مملكة المقرة) لأداء صلواتهم، مع ضمان حماية الكنائس في النوبة. للتفاصيل [44] [43].

- اتفاقية عبد الله بن الجهـم مع البجة في عام 216هـــ / 841م: هـي معاهـدة تاريخية تم إبرامهـا بين الدولة العباسية، ممثلة بعبد الله بن الجهـــم، وكنون بن عبد العزيز، رئيس قبائل البجة، بهـــدف إنهـــاء النزاعات وتنظيم العلاقات بين الطرفين بعد تمرد البجة على السلطة العباسية في شرق السودان، وتتضمن الاتفاقية النقاط التالي: التزام البجة بوقف التمرد والاعتداء على الأراضي الخاضعة للعباسيين، خاصة مناطق المناجم في شرق السودان. وافق البجة على دفع جزية سنوية للدولة العباسية كضمان للسلام. ضمان أمن الطرق التجارية بين مصر والسودان، وسلامة المسافرين والتجار. تعهد البجة بعدم التدخل في الشؤون الإدارية أو العسكرية للدولة العباسية. ورد أن البجة وافقوا على حماية المسلمين المقيمين أو الزائرين في أراضيهم، مع السماح بوجود مسجد لهم [45] ,[44].
- متن الزبد: هو كتاب مختصر في الفقه الشافعي ألفه الإمام أحمد بن حسين بن رسلان الرملي (ت 844 هـ/1440 م)، يُعد من أهم المتون الفقهية للمبتدئين. يتميز بتنظيمه الواضح وتغطيته لأبواب الفقه الأساسية (العبادات، المعاملات، الأحوال الشخصية). اشتهر بين طلاب العلم في مصر والشام، وله شروح عديدة، مثل شرح ابن التمجيد [46].
- الزوايا: في اللغة هي ركن البنيان وعند المتصوفة المتأخرين هي الرباط. أخذت من الفعل انزوى أي اتخذ ركناً من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد. وللزاوية أصل من السنة. فقد اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم لفقراء الصحابة الذين لا مأوى ولا مال لهم مكاناً في مسجده عرفوا بأهل الصفة [2].
- الخلوة: يقول ابن منظور: الخلوة في اللغة تعني الخلاء، والخلاء في الإبل. وهو كالخراف في الدواب. يقال خلأت الناقة، تخلأ خلأ وخِلأً بالكسر والمد، وخلواً، وهو خلأ، إى بركت وحرنت من غير علة. وقيل إذا لم تبرح مكانها [48]؛ وكلمة الخلوة إفراداً أو جمعاً هي تسمية محلية واستعمال خاص بأهل السودان [47].

بيان تضارب المصالح: "يُعلن المؤلفون عدم وجود أي تضارب في المصالح."
مساهمات المؤلفين: "قدّم جميع المؤلفين مساهمة جوهرية ومباشرة وفكرية في هذا العمل، ووافقوا على نشره."
التمويل: "لم يتلق هذا البحث أي تمويل خارجي."
بيان توافر البيانات: "لم تُستخدم أي بيانات لدعم هذه الدراسة."

قائمة المراجع

[1] عبد الجليل، الشاطر بصيلي. (1955). معالم تاريخ سودان وادي النيل: من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي. القاهرة، مطبعة أبو فاضل.

[2] عبد الرحيم، سلمى، محمد أحمد. (2015). "الخلوة وأثرها في نشر الدعوة الإسلامية في السودان". رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا – جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، أم درمان، السودان.

[3] ابن ضيف الله، محمد النور. (1971). *كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان*. تحقيق يوسف فضل حسن. دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم.

[4] الصوافي، عبد الله بن مصبح (1895). السلوة في أخبار كلوة. تحقيق آرثر أدمسترونج، لندن.

[5] ابن بطوطة، محمد بن عبد الله. (2002). رحلة ابن بطوطة: *تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار*. مؤسسة أبو ظبي للثقافة والتراث.

[6] الحويري، محمد. (1986). *ساحل شرق إفريقيا من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالي*. القاهرة: دار المعارف.

[7] كمال، يوسف. (1927). *وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقيا الشرقية*. القاهرة.

[8] مارمول كرفجال. (1989). إفريقيا(مجلدات). ترجمة: محمد حجي وآخرون. الرباط: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر.

[9] القلقشندي، أحمد بن علي. (1987). *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

[10] الإدريسي، محمد بن محمد. (2002). *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*. بيروت، بيروت: عالم الكتب.

[11] POuwels, R. L. (1987). Horn and Crescent: *Cultural Change and Traditional Islam on the East African Coast, 800–1900*. Cambridge, Cambridge University Press.

[12] ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى. (1970). *كتاب الجغرافيا*. تحقيق إسماعيل العربي. بيروت:المكتب التجاري للطباعة والنشر.

[13] Edwards, D. N. (2004). *The Nubian Past: An Archaeology of the Sudan*. London, Routledge.

[14] Martin, B. G. (1971). "The Spread of Islam in East Africa: A Reappraisal". *Journal of African History*, 12(1), pp.215-231.

[15] المسعودي، علي بن الحسين بن علي. (2005). *مروج الذهب ومعادن الجوهر*. بيروت، المكتبة العصرية.

[16] الحميري، محمد بن عبد المنعم. (1975). *الروض المعطار في خبر الأقطار*: معجم جغرافي مع مسرد عام. تحقيق إحسان عباس. بيروت: مكتبة لبنان.

[17] ابن سعيد المغربي، وأبو الحسن علي بن موسى. (1958). *كتاب بسط الأرض في الطول والعرض*. تحقيق نشأت إسماعيل. تطوان، معهد مولاي الحسن، المغرب.

[18] Cerulli, E. (1957–1964). *Somalia: Scritti vari editi ed inediti*. 3 vols. Roma, Istituto Poligrafico dello Stato.

[19] Trimingham, J. S. (1964). *Islam in East Africa*. Oxford, Clarendon Press.

[20] Levtzion, N .& Randall L. P. (Eds). (2000) *The History of Islam In Africa.* Athens, Ohio University Press.

[21] Mazrui, A. A. (1978). "The Role of Mosques in the Spread of Islam in East Africa". *The Journal of African History*, 19(1), pp. 89-105.

[22] Trimingham, J. S. (1949). *Islam in the Sudan. London*, Geoffrey Cumberlege, Oxford University Press.
[23] الإدريسي، السيد الحسن. (1977). *الحركة السنوسية وأثرها الثقافي في شمال إفريقيا*. رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض.
[24] ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (2004). *كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (المقدمة)*. بيروت: دار الفكر.
[25] Horton, M., Helen, W. B. & Nina, M. (1996). *Shanga: The Archaeology of a Muslim Trading Community on the Coast of East Africa*. London, British Institute in Eastern Africa.
[26] Chittick, H. N. (1974). *Kilwa: An Islamic Trading City on the East African Coast.* Vol. 1. Nairobi, British Institute in Eastern Africa.
[27] Thornton, J. K. (1992). *Africa and Africans in the Making of the Atlantic World*, *1400–1680*. Cambridge: Cambridge University Press.
[28] ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله. (1995). معجم البلدان. ط. 2. بيروت: دار صادر.
[29] Wynne-Jones, S. & Adria L. (Eds)(2018) . *The Swahili World.* London, Routledge.
[30] Paul, A. (1954). *A History of the Beja Tribes of the Sudan*. Cambridge, Cambridge University Press.
[31] Mukhtar, M. H. (1995). Islam in Somalia History: Fact and Fict In Ali Jimale Ahmed (Ed.), *The Invention of Somalia*. Lawrenceville: Red Sea Pression.
[32] النقيرة، محمد عبد الله. (1982). *انتشار الإسلام في شرق إفريقيا ومناهضة الغرب له*. الرياض: دار المريخ.
[33] زاهر، رياض. (1964). *الإسلام في إثيوبيا*. القاهرة: دار المعرفة.
[34] العيدروس، عيدروس بن الشريف علي النضيري العلوي. (1955). *بغية الآمال في تاريخ الصومال*. مقديشو، شركة مطبعة السلام.
[35] Horton, M. & Middleton, J. (2000). *The Swahili: The Social Landscape of a Mercantile Society*. Blackwell Publishers.
[36] Pankhurst, R. (1961). *An Economic History of Ethiopia and the Horn of Africa*. Addis Ababa: Oxford University Press.
[37] Spaulding, J. (1985). *The Heroic Age in Sinnār.* East Lansing, Michigan State University, African Studies Center.
[38] المقريزي، أحمد بن علي. (1998). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. بيروت: دار الكتب العلمية.
[39] Jones, G. (1973). "Traditional Education In the Swahili Coast". *East African Historical Review*, 5(2), pp. 115-128.
[40] Trimingham, J. Spencer (1965). *Islam in Ethiopia*. London, Frank Cass & Co.
[41] الدمشـــقي، شـــمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب. (1866). *نخبة الدهر في عجائب البر والبحر*. كوبنهاجن: مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية للمصنفات العلمية.
[42] العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله. (2002). *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*. تحقيق أحمد بن عباس. أبو ظبي: المجمع الثقافي.
[43] ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله. (1984). *فتوح مصر وأخبارها*. تحقيق عبد المنعم عامر. بيروت: دار الكتب العلمية.
[44] ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي. (1995). *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*. تحقيق محمد عبد القادر عطا، ومصـــطفى عبد القادر عطا. ط. 2. بيروت: دار الكتب العلمية.
[45] الطبري، محمد بن جرير. (1967). *تاريخ الرسل والملوك*. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار المعارف.
[46] ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. (1993). الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. (4 مجلدات). بيروت: دار الجيل.
[47] الإمام، أحمد علي. (2007). الخلوة والعودة الحلوة. الخرطوم: دار السداد للطباعة والنشر.

Educational and Civilizational Aspects in Eastern Sudan During the 6th–9th Centuries AH / 12th–15th Centuries AD: A Historical and Civilizational Study

Mohammed Al-Qadhafi Al-Nari
The Libyan Academy for Postgraduate Studies – Misrata, Department of Islamic History, Libya

Article information	**Abstract**
Key words Eastern Sudan, schools, Khalwas,	This study examines the civilizational manifestations in Eastern Sudan during the period from the 6th to the 10th centuries AH (12th–16th centuries CE). It highlights the major cultural, religious, educational, and economic

Zawiyas (Qur'anic schools), Mosques

Received 19 06 2026, Accepted 29 09 2026, Available online 04 10 2026

developments that accompanied the spread of Islam in the region. The study focuses on the role of Islamic institutions, particularly mosques, kuttabs, khalwas, and Sufi lodges, in promoting religious knowledge, Arabic language, and Islamic culture among local communities.

The research also investigates the contribution of rulers, merchants, scholars, and missionaries to the establishment of educational and religious institutions and their impact on social and cultural transformation. Furthermore, it explores the significance of trade networks linking Eastern Sudan and East Africa with the Arabian Peninsula, Egypt, and the wider Islamic world, which facilitated the exchange of ideas, goods, and cultural practices.

Using the historical analytical approach and relying on both primary historical sources and modern scholarly studies, the research demonstrates that Islam played a central role in shaping the civilizational identity of the region and contributed significantly to the emergence of integrated cultural and educational systems that continued to influence local societies for centuries.